حوض النيل (٣)

تلخيص الاستاذ حسين ثابت

مدير قسم التجارب الزراعية بوزارة الزراعة

« سبق أن نشرنا فى العدد الثانى موجزا عن حوض النيل، وفى العدد الرابع نشرنا وصفا له ، ونتابع فى هذا العدد نشر بقية هذا الوصف »

« التحرير »

ومن بين المشروعات المقترحة لتقليل المياه الضائعة فى منطقة السدود حفر قناة من بحر الجبل قرب منجلا إلى نهر البيبور مارة بفيفينو التى هي منخفض قليل الغور قائم فى السهل يحمل المياه فى موسم الأمطار إلى البيبور .

وقد تضمن التقرير الذى كتب عن هـــذا المشروع أنه إبان الفيضان البالغ فى الارتفاع الذى حدث عام ١٩١٧ — ١٩١٨ تدفقت المياه بكثرة فى بحر الجبل إلى نهر البيبور مارة بفيفينو ، غير أنه اتضح فيما بعد أن هذا التقرير غير صحيح ، نظراً لأن خط مستوى الارتفاع (الكنتور) لهذا الإقليم يجعل من المتعسر انسياب المياه من بحر الجبل فى هـذا الاتجاه ، وقد كان هذا التقرير موضع الدرس والفحص ولـكنه لم يظفر بالتأييد والموافقة.

والنيل الأبيض يجرى من مصب السوباط إلى الخرطوم فى مجرى هادىء فسيح مع انحدار طفيف جدا ، وهذه إحدى الحجج التى تقدم بها من زعم وجود بحيرة كبيرة فى الأزمنة الغابرة

وتقع الملـكال فى إقليم الشيلوك ، وهى عاصمة مديرية أعالى النيل الأبيض كما أنها محطة للطيران ، وفى شمالى الملـكال تماما تقع فاشودة التى تسمى الآن « كودوك » حيث تقابلت عندها بعثة مارشاند مقبلة من غرب أفريقيا باللورد كتشنر عام ١٨٩٨ وقد بلغ التأثر مبلغه فى ذلك الحين بين انجلترا وفرنسا ، ولـكن كان من حسن الحظ ان المسألة سويت فوراً ، فأمكن بهذه التسوية تجنب إشعال حرب أوربية .

وكلما توغلنا فى أسفارنا شمالا ازداد الإقليم إجدابا ، فاقليم السهوب (السفانا) يهيىء المجال لنمو الأشواك الضئيلة حتى إذا دنونا من الخرطوم أصبح الإقليم وكأنه

صحراء قاحلة ، وقدقامت الحكومة المصرية ببناء سد جبل الأولياء جنوبى الخرطوم مباشرة لخزن المياه ، وكان وادى النيل الأبيض قبل إقامة هذا السد خزانا طبيعيا لأن مياهه تحجز فيه بحكم ارتفاع النيل الأزرق ارتفاعا سريعا ، كما كان من أثر انشاء السد بقاء المياه مخزونة أمامه على صورة أكبر، واستمرارها على هذا النحو رغم هبوط النيل الأزرق حتى يأتى اليوم الذى تصبح المياه فيه ضرورية لأعمال الرى فى مصر فى شهر فبراير أومارس ، ويصل منحنى الرمو (أي ارتفاع منسوب المياه) بسبب تأثير الخزان فى رفع مناسيب النهر إلى ما بعد الرنك نظراً لانحدار النيل الأبيض انحداراً بسيطا للغاية .

وعند ما نصل إلى الاصقاع الواقعة بين ملكال والخرطوم نكون قد خلفنا وراءنا الإقليم الذى يقطنه الزنوج ، وهم الذين يتكلمون بلغاتهم الخاصة حيث تدخل إقليما سكانه خليط من سلالة العرب والزنوج يتكلمون العربية ، والواقع أن اللغة العربية يفهمها الأهالى المقيمون على جانبى النهر كما يفهمها المقيمون على الطرق الرئيسية فى جميع أنحاء جنوب السودان ولكن اللهجة المنتشرة فى أوغندا وأفريقيا الشرقية الوسطى هى السواحلية وهى لغة قبائل البانتو .

والخرطوم هى عاصمة السودان وتقع عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق ، كما تقع أم درمان المدينة الأفريقية البحتة والسوق العظيم الشأن على الضفة الغربية للنهر الرئيسى ويربطها بالخرطوم جسر مقام عبره ، وكانت مركز الإدارة فى أيام المهدى والخليفة وحدثت بالقرب منها تلك الموقعة التى تغلبت فيها قوات اللورد كتشنر عام ١٨٩٨ على قوات المهدى .

وكان الخرطوم خلال القرن الماضى من أكثر المدن إهمالا للصحة فى أفريقيا وبعد إعادة فتح السودان اتخذت تدابير فعالة للقضاء على البعوض، وبذلت عناية كبيرة فى سبيل توفير أسباب الصحة العامة ودراسة أمراض المناطق الحارة حتى أصبحت الخرطوم اليوم بفضل هذه المجهودات مدينة صحية نسبيا .

وإذا ألقينا نظرة على النيل الازرق وهو أكبر المجريين اللذين يلتقيان عند الخرطوم والمصدر الذى يستمد منه النيل ٧٠٪ من مياه فيضانه رأيناه مجرى غنيا بالمواد الغرينية فى موسم الفيضان ، والخط الذى يفصل مياهه من مياه النيل الأبيض مميز تمييزا تاما فى المسافة من نقطة موغرن إلى أم درمان ، وتبدو صافية رائعة

فى فصل التحاريق ذات منظر أزرق ، ومن هذا اللون سمى « الأزرق » ، والمعروف أن منبعه الأزرق يقع على الجهة الجنوبية من بحيرة تانا بالحبشة ويجرى منه رافد أبى الصغير وهو النهر الرئيسى للبحيرة التى تقع فى حوض على ارتفاع نحو ٧٠٠٠ قدم (١٨٠٠٠ متر) ولكنه ذو جبال شاهقة لا تبعد مسافة كبيرة ، ومساحتها ٣١٠٠ كيلو متر مربع (٧٥٠٠٠٠ فدان) وهى قليلة الغور ، وقد درس مشروع إقامة سد على مخرج البحيرة لتحويلها إلى خزان ، ولم تبد فى المشروع صعوبات جوهرية إذا أغفلنا الصعوبات التى تواجهنا من حيث بعد البحيرة وكونها واقعة فى أصقاع نائية ، ومن حيث صعوبة النقل أيضا ، وكان كل من البحيرة والنيل الأزرق موضع عناية خاصة فى المدة الاخيرة ، ومما تجب الاشارة إليه أنه قد وضعت تقارير مستهجنة مملوءة بالاخطاء مؤداها مثلا تحويل مجرى النيل الأزرق إلى البحر الأحمر أو إلى جهة أخرى بعيدة عن مصر ، وبذلك تنقلب البلاد إلى صحراء قاحلة ، وقد يعيد هذا إلى أذهاننا الفكرة التى سادت فى العصور الوسطى حين عمت المجاعة مصر فقد تسرب إلى العقول إذ ذاك وطاف بالأحلام أن الأحباش قاموا بتحويل اتجاه النيل ، لذلك بعث والى مصر رسولا مزودا بالهدايا الكثيرة إلى ملك الحبشة ليلتمس منه التصريح والموافقة على اعادة النيل إلى مجراه الأصلى ، وقد استغل هذه الفكرة نفسها أحد حكام الحبشة فى العهد القريب جدا بقصد تهديد مصر ، وكل هذا حديث لغو وقول هراء لا طائل تحته ، فضلا عن أن هذا التحويل يتطلب من الأعمال والمشاق ما يتطلبه تحويل نهر الرين إلى البحر الادرياتى عبر جبال الألب .

يبتدىء النيل الأزرق من البحيرة فيجرى فوق سلسلة من الشلالات ، وسرعان ما يهبط بعد ذلك إلى ممر ضيق بين جبلين فى مواقع تبلغ ٤٠٠٠ قدم تحت المنسوب العام للهضبة ، وتنحدر الدروب إلى النهر فى أماكن تتخللها مجارى المياه فى فصل التحاريق ، وتستغرق رحلة الهبوط وعبور النهر ثم تسلق الجانب الآخر من الوادى يومين اثنين بالبغال عادة ، وقد نحتت النهيرات مجاريها فى أودية ضيقة مماثلة مما يجعل المنظر ساحرا بهيجا فى عظمته ووعورته على السواء ، وحتى فى عصرنا الحالى لم يتيسر تتبع مجرى النهر الاصلى ، وليس من المستطاع السفر بمحاذاة قاع الممر الجبلى الضيق .

وقليل هو الماء الذى يجرى فى النيل الازرق آتيا من بحيرة تانا ، إذ أن معظم مياهه تأتى بها الروافد المتصلة به ومنها ما يعتبر من الأنهار ذات الأهمية كالبالاس

أو الجسين والدادسا والدورا والجاما والباشيلو ، وهى تستمد مياهها من الأمطار التى تهطل على هضبة الحبشة ، وليس من الثلوج الدائبة كما يزعم البعض أحيانا ، ويبلغ أكثر الجبال ارتفاعا فى الحبشة ١٥٠٠ قدم ويتساقط عليها الثلج من حين لآخر ، ولكن سرعان ما يتلاشى ، ولا يعرف إلا القليل عن النهر وروافده من الوجهة المائيه (الهيدرولوجية) فيما بين بحيرة تانا وحدود السودان التى لا يلبث أن يبلغها بعد تركه الجبال ، وهو غير صالح للملاحة فى أى جزء من أجزائه ، فيما عدا مسافات قصيرة ، إلى أن يدخل حدود السودان ، ومع ذلك فقد استخدم للملاحة حتى نهاية عمر فاساكا الواقع على مسافة ٣٠ كيلو مترا تقريبا من جهة حدود السودان ، ولكن الحد المألوف ينتهى عند الروصيرص حيث أن شلالات جانيس أوداماز ين الواقعة جنوبى الروصيرص تقف عقبة كأداء ، ومع ذلك فإن الملاحة فى موسم التحاريق غير متيسرة حتى إلى الروصيرص ، وتحتوى الرمال الموجودة فى مجرى النهر وروافده على معدن الذهب بكميات ضئيلة ، وكثيراً ما يشاهد الأهالى يغسلون الرمال ابتغاء الحصول على هذا المعدن النفيس ولكنها مهنة شاقة قلما تدر ربحا .

والروصيرص هى النقطة الأولى على النيل الأزرق ، وقد أقيم عندها مقياس للنهر لقياس التصرف ، ويبلغ منسوب هذا المقياس يوميا بالبرق (تلغرافيا) إلى القاهرة وقراءاته من يوليه إلى سبتمبر على درجة عظيمة من الأهمية ، لأنها توضح المعلومات الأولية عن ماهية الفيضان وأى المناسيب يمكن توقعه فى مصر .

وفى منتصف المسافة بين الروصيرص والخرطوم يقع سد سنار الذى يستخدم فى غرضين : أولهما رفع منسوب النهر حتى يمكن تغذية ترعة الجزيرة بالماء اللازم ، وثانيهما تخزين المياه لاستخدامها فى رى محاصيل الجزيرة بالسودان ، والسد مقام على طبقة صخرية ظاهرة على السطح ، ومشيد من الأحجار التى جلبت اليه من محاجر التلال الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض ، وهو يتسع لتخزين ٨٠٠ مليون طن (متر مكعب) من الماء ، وتحجز المياه مدة الفيضان ثم تستخدم فيما بين يناير وابريل ، وتبدأ المساحة التى تروى بهذا القدر من المياه قرب واد مدنى وتغطى نحو ٨٥٠,٠٠٠ فدان ، وقد أحسن تخطيط هذه الاراضى ، وأقيم نظام الرى على قاعدة

قياس التصرف بعناية بواسطة الهدارات والوسائل الأخرى التى تكفل ضبط كميات المياه التى تدخل الفروع من الترعة الرئيسية ، وأهم المحاصيل هى القطن والذرة النيلية واللوبيا .

وعندما يبدىء بادخال نظام الرى فى هذه المساحة التى لم يمارس فيها هذا النظام من قبل توافرت ميزة وضع التصميم لأول وهلة دون أن يكون هناك ارتباط ما بأى أسلوب أو طراز سابق ، على أنه قد وجدت صعوبات جمة من جهة أخرى كان ينبغى التغلب عليها ، ومن بينها أو بالأحرى فى مقدمتها عدم خبرة المزارعين واستحالة الرى ليلا ، ثم طبيعة الأرض التى لا ينفذ اليها الماء .

ويتصل بالنيل الأزرق فيما بين سنار والخرطوم نهيران هما الدندر والرهد وهما يشبهان النيل الأزرق فى شدة تدفقهما ولكنهما يختلفان عنه فى أنهما يجفان تماما عدا ما يحفهما من برك ، ولكن كلا منهما له أهميته الكبرى فى موسم الفيضان .

ولنعد الآن إلى النيل الرئيسى الذى يجرى من الخرطوم شمالا فى إقليم صحراوى حيث الأمطار قليلة على خط عرض الخرطوم ، غير أن الصحراء تغطيها الخضرة وتصبح نضيرة لمدى قصير فى شهرى يوليه وأغسطس ، وتقل الأمطار المتساقطة عن مقدار بوصة واحدة فى السنة من أنحناء النيل الكبير شمالى العطبرة إلى قرب القاهرة وهى درجة يصح معها اعتبار الإقليم عديم الأمطار على وجه التقريب ، وتقع الأراضى الصالحة للزراعة التى يجمل التحدث عنها فى شقة ضيقة على ضفتى النهر ، ولا توجد فى الواقع نباتات فى معظم المنطقة الواقعة بين الخرطوم وأسوان ، وهناك رقع صغيرة من الأراضى التى رسب على سطحها الطمى تروى بواسطة السواقى ، كما توجد فى مديرية دنقله مساحات من الأراضى تروى بالآلات الرافعة وبعضها يروى بالراحة إبان الفيضان ، والملاحة المتواصلة بين الخرطوم وحلفا غير متيسرة لوجود الجنادل التى هى أقرب شبها بالمناطق الصخرية السريعة التيار فى مجرى النهر ومنها شلالات بالمعنى الحقيقى ، ولنضرب لذلك مثلا الشلال الثانى الواقع فوق حلفا ، فانه إلى مدى أربعة أميال تقريبا ينشق النهر إلى عدد من القنوات تحوطها الصخور وتحدق بها الشلالات ، ويتيسر بصعوبة أثناء الفيضان سحب السفن صوب الجنوب فوق الشلال ، وقد قام بهذا العمل عدد كبير من الرجال فى الغزوات التى جهزت ضد

المهدى ، وإن كان لم يكتب لجميع القوارب سلامة المرور دون حصول حادث .

ويعرف الإقليم فى المنطقة الواقعة جنوبى حلفا باسم « بطن الحجر » وهو اسم قد أحسن اختياره ، ويندر وجود السكان فى الرقعة الممتدة من الخرطوم إلى حلفا كما توحى بذلك طبيعة المنطقة ، ولا يتصل بالنيل فى هذه المسافة سوى نهر واحد هو العطبرة ، وهو نهر كبير غنى بالمواد الغرينية مدة الفيضان ، ولكنه يتحول إلى برك فى موسم التحاريق ، ويمد النيل بمقدار ١٥ ٪ من مياه الفيضان ، ويتكون من عدة نهيرات تنبع من مرتفعات بلاد الحبشة ، وينبع النهر الرئيسى منها بالقرب من غندار الواقعة شمالى بحيرة تانا تماماً ، وله نهيران رئيسيان هما بحر السلام والستيت أوتكاز ، والستيت فى الغالب هوا كثر اتساعا من النهير الذى يطلق عليه اسم العطبرة ، ولا يعلم عن هذه النهيرات أو أعالى العطبرة إلا القليل من الوجهة المائية (الهيدرولوجية) ، وكذلك لم يدرس بعد إمكان استخدام العطبرة فى أغراض الرى ، لكن أهميته تظهر إبان الفيضان وبخاصة فى الفيضان العالى عند ما يصل فيضان النيل الأزرق الى الذروة فى وقت واحد ، وهذا تتسبب عنه مناسيب عالية بمصر تصل إلى حد الخطورة .

وتوجد على طول النهر فيما بين مصب العطبرة ووادى حلفا آثار قلاع عديدة باقية من عصر المهدى مبنية من الحجر ومقامة على التلال التى تشرف على النهر ، ويرجع تاريخ السكة الحديد التى تربط حلفا بالخرطوم إلى عهد المهدى ، وقد قام بانشائها اللورد كتشنر ، وعلى بعد ٤٠ ميلا تقريبا جنوبى حلفا تقع مدينة « سمنا » ذات الأهمية العظمى والحرية بالرؤية إلى حد كبير بسبب وجود حاجز من الصخور يعترض مجرى النهر فى هذا الجزء ، ويمر النهر فوق هذا الحاجز إبان الفيضان ، أما فى موسم الجفاف فإن النهر برمته يمر وسط ثغرة نحرها فى الحاجز ، وما زالت آثار مناسيب الفيضان فى زمن قدماء المصريين تشاهد منحوتة على الصخور فى نهاية الحاجز ، وهى توضح أن المناسيب فى تلك الأزمنة كانت أعلى بكثير منها فى الوقت الحاضر . ويبلغ الانساع الطبيعى للنهر مدة الفيضان فيما بين الخرطوم والقاهرة نحو نصف ميل (٨٠٠ متر) .

وتقع وادى حلفا شمالى الشلال الثانى مباشرة ، وهى داخلة فى المنطقة التى تأثرت بخزان أسوان المعلى الذى من شأنه ارتداد المياه جنوبا حتى الشلال المذكور .

ويعتبر سد أسوان من أكبر السدود الموجودة فى أنحاء المعمورة ، وقد تمت تعليته مرتين ، ويبلغ ارتفاعه الآن نحو اربعين مترا (١٣٠ قدما) كما يبلغ طوله كيلومترين (١¼ ميل) ويخزن من المياه ما مقداره ٥٣٠٠ مليون طن (متر مكعب) وقد أثارت التعليتان اللتان تناولتا أيضا تقوية السد وزيادة سمكه بعض المسائل الهامة فى التصميمات البنائية للتغلب على الصعوبات الناشئة عن التمدد والتقلص الناشئين عن تغير درجة الحرارة ، وفضلا عن استخدام السد لتخزين المياه فإن وظيفته تتناول كذلك قياس كمية المياه التى تجرى شمالا الى مصر ، وقد بنى فى الموضع الذى ظهرت فيه طبقة سطحية من حجر الجرانيت عبر النهر تسبب عنها وجود الشلال الأول.

وينشأ عن ملء الخزان فى كل عام غمر الأراضى التى كان من المعتاد زرعها ، ولا وجه شبه للأحوال فى بلاد النوبة الآن بما كانت عليه من قبل إلا فى ثلاثة اشهر تقريبا من كل عام أثناء ارتفاع الفيضان ، وقد عنى بتعويض اهالى هذه البلاد عن ضياع أراضيهم إما نقداً وإما عن طريق إدخال مشروعات الرى بالطلمبات ، وبمقتضى هذا النظام يصبح من الميسر زراعة الأراضى ذات المنسوب المرتفع الممتدة إلى الداخل من جانبى النهر . ويلاحظ أن الوادى فيما بين أسوان وحلفا يغلب على طبيعته الضيق ، ولم تبلغ الشقة المزروعة فى وقت ما من الاتساع درجة تفى بحاجات سكان عديدين ، ويهجر معظم الأهالى الذكور من سنوات خلت بلادهم ساعين وراء رزقهم فى مدن مصر والسودان .

ومن شمالى أسوان تأخذ الشقة المزروعة على ضفتى النيل فى الاتساع تدريجيا حتى يبلغ عرضها حداً اقصى قدره ١٢ ميلا ، وقد أقيمت القناطر على النيل عند إسنا ونجع حمادى وأسيوط فى الوجه القبلى لرفع منسوب النهر بدرجة كافية تسمح للمياه بتغذية الترع الرئيسية ، وفى الجنوب ماز الت البلاد تجرى على نظام الرى الحوضى ، ولكن المقصود من إقامة قناطر فؤاد الأول بنجع حمادى وأسيوط هو إمكان تحويل مساحات كبيرة من الأراضى من نظام الرى الحوضى الى نظام الرى المستديم ، ومع ذلك فما زالت هناك أجزاء فى مصر الوسطى تروى بالرى الحوضى ، وتؤدى قناطر الدلتا أو قناطر محمد على المقامة عند رأس الدلتا نفس الغرض للوجه البحرى ، ومن شأن كل من هذه القناطر رفع منسوب النهر بمقدار يتراوح بين مترين وأربعة أمتار ونصف ، حسب الزمن وحال النهر ، وهناك وصف مسهب عن الرى فى الفصل الخامس .

والنيل على العموم موضع إشراف ومحل مراقبة من أسوان الى البحر لأهمية ذلك للرى مع استثناء موسم الفيضان ، وحتى إبان الفيضان عند ماتكون جميع منافذ سد أسوان مفتوحة فإن النهر لايترك حرا ، فالترع النيلية تستنفد كميات كبيرة من المياه لرى الحياض ، كما تستنفد الكميات اللازمة للرى المستديم ، ويمكن بلوغ هذه الغاية بواسطة الحجز على القناطر حجزا من شأنه رفع مناسيب المياه أمامها حتى يتيسر تغذية الترع التى تستمد مياهها من النهر أمام القناطر مباشرة .

ومن فبراير الى يوليه ، فيما عدا السنوات ذات الفيضانات العالية جدا ، لايسمح لماء النهر بأن يصب فى البحر إلا بعد استخدامه أولا فى الرى ، وعندئذ يسلك طريقه فى المصارف ومن ثم إلى البحر ، وتمتنع تغذية فرع رشيد من أمام قناطر الدلتا أثناء هذه الفترة ، أما فرع دمياط فيعطى مقدارا ضئيلا جدا من هذه المياه ، ومع ذلك فهناك مقادير محدودة تتسرب للفرعين بالرشح ، والملاحة شمالى القناطر متيسرة في حدود ضيقة جدا أثناء هذه الفترة ، ويتخذ النقل بالسفن من القاهرة الى الاسكندرية سبيله فى الترع على طول الطريق من القناطر ، والمعتاد سد كل من الفرعين بالقرب من مصبهما سنويا باقامة الجسور الترابية أو السدود التى تشيد فى كليهما فى الخريف ، ثم يقفل الفرعان إقفالا نهائيا أحدهما فى نوفمبر والآخر فى فبراير أو مارس ، وتؤدى هذه الجسور غرضا مزدوجا ، فهى تقف حائلا دون دخول الماء المالح إلى النهر ، كما تساعد على رى بعض الأراضى الواقعة قرب البحر من المياه التى تتجمع أمامها ، فاذا ماأقبل الفيضان تقطع هذه السدود فى أوائل شهر أغسطس فيجرفها النهر بعيدا ، ويستخدم النهر من أسوان إلى القاهرة كمجرى ملاحى عظيم الشأن لجميع أنواع السلع التجارية التى تنقل إما على ظهور السفن الشراعية ذات الطراز الخاص أو بواسطة الصنادل أو الرفاصات التى تقطر المراكب . وتبلغ حمولة المراكب الشراعية حداً كبيرا فقد تصل إلى ٢٠٠ طن ، ومما يساعد السفن على الملاحة أنه بينما تجرى مياه النهر من الجنوب إلى الشمال فان الرياح السائدة تهب من الشمال إلى الجنوب ، ويبنى على ذلك أن السفن تسير غالبا صوب الجنوب مدفوعة بالريح وتعود إلى الشمال مع التيار .

ويوجد فى بلاد النوبة جنوبى أسوان عدد كبير من المعابد الأثرية أكثرها ذيوعا معبدا فيله (قصر أنس الوجود) وأبو سمبل ، ولما كانت معظم هذه المعابد

الآن تغمرها الآن غمرا جزئيا عند مايكون الخزان ممتلئا على أنه فقد سبق أن اتخذت الاجراءات للمحافظة عليها قبل البدء فى ملء الخزان العلى ، فمعبد فيله الذى كان يتأثر من الخزان الأصلى يغطى كله فترة من العام مع أنه كان يعمل جزئيا فى كل سنة منذ عام ١٩١٢ إلا أنه لم تبد عليه أية علامة من علامات التلف .

وعلى مسافة يسيرة من شمالى أسوان لانوجد سوى شقة ضيقة مزروعة على امتداد ضفتى النهر ، ولكن هذه الشقة تأخذ فى الاتساع كلما تقدم بنا السير صوب الشمال ، وفيما عدا بعض مساحات تروى بالطلمبات فإن نظام الرى الحوضى هو السائد حتى شمالى قناطر فؤاد الأول بنجع حمادى حيث يبدأ الرى المستديم ، وإن كانت لاتزال هناك أراض متاخمة للصحراء على بعد ٢٥ ميلا من القاهرة تروى بالحياض ، وعند أسيوط تستمد الترعة الابراهيمية — وهى أكبر الترع فى مصر — مياهها من الضفة الغربية للنيل أمام القناطر ، وتغذى هذه الترع مصر الوسطى بأكملها والفيوم ، وتنتهى أخيرا بالمصارف والترع الفرعية التى تصب مياهها الفائضة إما فى فرع رشيد أو فى رياح البحيرة شمالى القناطر .

والفيوم عبارة عن منخفض عظيم من الأراضى الزراعية الى الجهة الغربية من النيل تكتنفه الصحراء ، وبها بحيرة قارون التى يبلغ منسوب سطحها الآن نحو ٤٥ مترا تحت مستوى البحر ، وكان سطحها فى الأزمنة الغابرة أعلى بكثير مما هو عليه الآن بدليل وجود الشواطىء الرملية القديمة التى هى أعلى من البحيرة الحالية وأكثر ارتفاعا منها ، وماء البحيرة مالح قليلا ولكن هذه الملوحة تزداد على توالى الزمن بدرجة أن بعض أنواع السمك الذى كان يعيش فيها من قبل قد تلاشى ، بينما جلب اليها سمك البحر الذى يعيش فيها .

والقاهرة التى تقع فى رأس الدلتا مشيدة على ضفتى النهر ومبانى الجزء الأكبر منها من الطراز الحديث ذى الشوارع الفسيحة والمبانى الشاهقة ، ويوجد بها مع ذلك كثير من الآثار كالمساجد والمنازل القديمة ، كما توجد القلعة ومقياس النهر بالروضة ، والكثير من المنازل القديمة هدمت لضعف مبانيها وأقيمت على أنقاضها مبان أفضل تنسيقا وأحدث طرازا ، ويوجد فى غرب القاهرة وجنوبها مجموعات من الأهرامات أقدمها عهدا الهرم المدرج بسقاره ، ويرجع تاريخه الى نحو ٥٠٠٠ سنة ، ومن طريف مايذكر أنه بينما كان أحد موظفى مصلحة الآثار

يشرح لفريق من السائحين تاريخ آثار سقاره فبعد أن أعيته كثرة الأسئلة الحرقاء وجه اليه سؤال عن كيفية معرفة تاريخ بناء الأهرام وأنه شيد منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فما كان جوابه إلا أن قال إنه أمكن العثور على قطعة من العملة مكتوب عليها هذا التاريخ ويغلب على الظن أن هذه الدعابة يرجع تاريخها الى عهد قدماء المصريين .

والرى المستديم هو النظام الوحيد السائد فى أنحاء الدلتا . وتمتد المساحة المزروعة تدريجيا نحو الشمال حتى شواطىء البحيرات الممتدة على طول ساحل البحر، وكانت المساحة المتاخمة لحدود البحيرات من جهة الجنوب تكتنفها المستنقعات فيما مضى ، كما كانت غير مزروعة لايقطنها سوي سكان قلائل يتخذون غالبا من صيد السمك مهنة لهم ، غير أن ماتم أخيرا من أعمال الصرف وتوفير المياه الصيفية باقامة خزانى أسوان وجبل الأولياء هدانا الى التوسع فى الزراعة نحو الشمال حتى أطراف البحيرات تقريبا ، أما وجود الأكمات والروابى المرتفعة من بقايا القرى التى كانت الى عهد قريب تكتنفها المستنقعات ، فإنه ينهض دليلا على ماحدث من تغييرات فى منسوب الأرض فى الأزمنة التاريخية .

وأراضى الدلتا مستوية مع انحدار يتجه نحو الشمال مقداره ١٠ سنتيمترات بكل كيلومتر (١/١٠٠٠٠) تحدها من طرفيها صحراء أكثر ارتفاعا ، ومن هنا كانت الأراضى الصالحة للزراعة بمصر محدودة بالقدر الذى تتوافر به الأراضى المنخفضة انخفاضا كافيا يسمح بريها ، وتتصل بحيرتا البراس والمنزلة بالبحر ، وكلاهما فى مستوى منسوب البحر ، ولكن تحتفظ بحيرة مريوط بنحو ثلاثة أمتار تحت منسوب البحر ، وذلك بفضل الطلمبات القائمة بالمكس فى الجهة الغربية من الاسكندرية ، وقد أمكن بذلك تجفيف جزء من بحيرة مريوط وتحويله إلى أراض زراعية ، وليس من شك في أن هذه العملية ستطبق فى النهاية على كثير أو قليل من البحيرات الأخرى القائمة على امتداد الساحل .

ومدينة الاسكندرية وإن كانت مشيدة من زمن بعيد إلا أنه ليس بها إلا عدد قليل جدا من المبانى القديمة ، فهى بذلك مدينة من الطراز الحديث تمتد بضعة أميال على طول الساحل .

والمنازل بالمدن المصرية تبنى إما من الطوب الأحمر أومن الحجرأو من الأسمنت المسلح ، ولكن معظم سكان القرى يعيشون فى مساكن مبنية من اللبن (الطوب النىء) ويزدحم السكان فى الكفور ويندر وجود المنازل الريفية المنعزلة ، والمهنة الرئيسية فى الديار المصرية هى الزراعة ، ويشتغل بها أكثر من ثلثي الذكور من السكان .

[له بقية]